يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

[تابع ما نشر في العدد الماضي]

١٢ أكتوبر ...

لما عدنا كان ميعاد الجلسة قد حان . ودنت سياراتنا من المحكمة فشاهدنا الأهالي ببابها مكدسين كالذباب . وكان مساعدي قد خر إلى جواري صريع السكرى ، ولم يهمني أمره ، ولم يدر بخلدي قط أن أدعوه وهو على هذه الحال من التعب الى مشاهدة الجلسة بجواري كما تشهد التحقيق . إنه لم يعتد بعد وصل الليل بالنهار . وحسبه هذه السهرة الممتعة ؛ فلأرفقن به في أول عهده بالخدمة . وما إن مررنا بالمحكمة حتى أمرت السائق بالوقوف ،

وأوصيته أن يمضي بالمساعد إلى منزله ، وحييت المأمور ونزلت أشق طريقاً بين أكوام الرجال والنساء والأطفال . ودخلت حجرة المداولة فوجدت القاضي في الانتظار . وما كدت أرى وجه القاضي حتى وجمت ؛ ففي المحكمة قاضيان يتناوبان العمل ، أحدهما يقيم في القاهرة ولا يأتي إلا يوم الجلسة في أول قطار ، ويسرع في نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشرة الذي يعود إلى القاهرة . ومهما زادت

صاحبه بين قبور متكاثرة تتبدى تحت ضوء القمر في كل ناحية

هنا ، يا للهول ! وقعت في التو واللحظة آية مرعبة : تساقطت عباءتنا الفارس إرباً إرباً كالعهن المحروق . ولم تبق من هامته إلا جمجمة معروقة ؛ وحال جسمه هيكلا عظمياً محتقباً ساعة رملية ومعتقلاً منجلا

وشب الجواد الأسحم حنقاً ونفث شرراً . وعلى حين بغتة ساخ وغاب في أعماق الأرض ؛

وتصوبت من أجزاء الفضاء صيحات وصيحات ؛ وتصعدت من القبور تحت أطباق الثرى أنات وأنات

فخفق قلب ليونورا خفقة انتقلت بها من الحياة إلى الموت

فتحلقت الأرواح تحت ضوء القمر حولها ، ورقصوا وهم ينشدون : « الصبر ! الصبر ! مهما هاض الألم قلبك وصدع كبدك ، فلا تعبي في حق رب السموات أبداً . هاأنت ذي قد أسلمت جسمك عفا الله عن نفسك »

عبد الرحمن صدقي

القضايا وبلغ عددها فان هـذا القطار لم يفت القاضى يوماً قط . أما القاضى الثانى فهو رجـل ذو وسواس ، وهو بعـد يقيم مع أسرته فى دائرة المركز ، فهو يبطىء فى نظر القضايا خشية العجلة والغلط ؛ ولعله أيضاً يريد شغل وقته وتسلية ضجره فى هـذا الريف ؛ وليس أمامه قطار يحرص على ميعاده ؛ فهو من الصباح يجلس إلى المنصة وكأنه قطعة منها سمرت فيها فلا ينفصل عنها إلا قبيل العصر . ويستأنف الجلسة فى أكثر الأحيان عند المساء . وكانت تذيقنى جلسته مر العذاب ، فهى الحبس بعينه . وكأنما قضى علىّ أن أربط إلى منصتى لا أبدى حراكا طول النهار ، وقد وضع حول عنقى وتحت أبطى ذلك الوسام الأحمر الأخضر كأنه الغل . أهو انتقام إلهى لهؤلاء الأبرياء الذين دفعت بهم إلى الحبس دون أن أقصـد ؟ أترى أخطاء المهنة تقع تبعاتها علينا فندفع ثمنها فى الحياة دون أن نعرف ؟

وجمت لرؤية القاضى إذ أدركت أنى وقعت فى جلسة لا ترحم بعد ليلة كلها عمل . ولست أدرى ما الذى طمس ذاكرتى فحسبت خطأ أن اليوم نوبة ذلك القاضى السريع

* * *

دخلت الجلسة ؛ وكان أول ما فعلت أن نظرت فى « الرول » فاذا أمامنا سبعون مخالفـة وأربعون جنحة . عدد والحمد لله كفيل أن يجلسنا بلا حراك مع هذا القاضى طول اليوم . على أن القضايا دائماً عند هذا القاضى أكثر منها عند القاضى الآخر ؛ والسبب بسيط : إن القاضى الموسوس لا يحكم فى المخالفـة بأكثر من غرامة عشرين قرشاً ، بينما الآخر يرفع سعر الغرامة إلى خمسين . وعلم المخالفون والمتهمون بذلك فجعلوا كل همهم الهروب من صاحب السعر المرتفع والالتجاء إلى صاحب السعر المناسب . وطالما تبرم هـذا القاضى وشكا من ازدياد عمله يوماً عن يوم دون أن يدرى العـلة . فكنت أقول فى نفسى : « إرفع أسعارك تر ما يسرك » ، وبدأ المحضر ينادى أسماء المتهمين من ورقة فى يده . وقزمان افندى المحضر رجل مسن أبيض الشعر والشاربين ذو منظر وهيئة يليقان برئيس محكمة عليا ؛ وهو إذا نادى تعاظم فى حركاته وإشاراته وصوته ، والتفت إلى الحاجب بالباب التفاتة الآمر الناهى ، فيردد الحاجب الاسم خارج قاعة الجلسة كما تلقاه من المحضر ، ولكن فى مد وغن ونغمة كنغمة الباعة المتجولين . وقد لاحظ ذلك أحد القضاة مرة فقال له : « أنت ياشعبان قاعد تنادى على قضايا جنح ومخالفات ، أو على بطاطة وبلح أمشهات ؟ » فأجابه الحاجب : « جنح ومخالفات أو بلح أمهات ، كله أكل عيش »

ومثل أول المخالفين أمام القاضى الغارق فى الأوراق ؛ فرفع القاضى رأسه ووضع منظاره السميك على أنفه ، وقال للماثل بين يديه :

— أنت يا رجل خالفت لائحة السلخانات بأن أجريت ذبح خروف خارج السلخانة

— يا سيدى القاضى ، الخروف ... ذبحناه ، ولا مؤاخذة ، فى ليلة حظ « عقبال عندك » بمناسبة ظهور الولد

— غرامة عشرين « قرش » . غيره ...

فنادى المحضر . ونادى ثم نادى ... مخالفات متتابعة كلها من ذلك النوع الذى مضى الحكم فيه ... وقد تركت القاضى يحكم وجعلت أروح عن نفسى

بمشاهدة الأهالى الحاضرين فى الجلسة ... وقد ملأوا المقاعد و « الدكك » وفاض فيضهم على الأرض والممرات ... فجلسوا القرفصاء كأنهم الماشية يرفعون عيونهم الخاشعة إلى القاضى وهو ينطق الحكم كأنه راع فى يده عصا . وضاق ذرع القاضى بذلك اللون المتكرر من المخالفات فصاح :

— فهمونى الحكاية : الجلسة كلها خرقان خارج السلخانة .! وحملق فى الناس بعينين كالحصرتين خلف المنظار الراقص على طرف أنفه ، ولم يفطن أحد ولا هو نفسه لما فى هذه العبارة من تعريض . ومضى المحضر ينادى وقد تغير قليلا نوع المخالفة ودخلنا فى نوع جديد ، فقد قال القاضى للمخالف الذى حضر :

— أنت يا رجل متهم بأنك غسلت ملابسك فى الترعة

— يا سعادة القاضى ربنا يعلى مراتبك ! تحكم على بغرامة لأنى غسلت ملابسى ؟

— لأنك غسلتها فى الترعة

— وأغسلها « فين » ؟

فتردد القاضى وتفكر ولم يستطع جوابا . ذلك أنه يعرف أن هؤلاء المساكين لا يملكون فى تلك القرى أحواضاً يصب فيها الماء المقطر الصافى من الأنابيب ، فهم قد تركوا طول حياتهم يعيشون كالسائمة ، ومع ذلك يطالب إليهم أن يخضعوا إلى قانون قد استورد من الخارج على أحدث طراز ، والتفت القاضى إلىّ وقال :

— النيابة ..

— النيابة ليس من شأنها أن تبحث أين يغسل هذا الرجل ملابسه ، ولكن ما يعنيها هو تطبيق القانون .! فأشاح القاضى بوجهه عنى وأطرق قليلا وهز رأسه ثم قال فى سرعة من يزيح عن كاهله حملا :

— غرامة عشرين .! غيره

فنادى المحضر اسم امرأة ، فحضرت مومس ريفية قد زججت حاجبيها بعود ثقاب ، وطلت وجنتيها بذلك الأحمر الفاقع الذى تطلى به صناديق الدخان ، « السمسون » وصورت بالوشم صورة قلب يخترقه سهم على ذراعها العارية ، ووضعت فى معصمها أساور و « غوايش » من المعدن ومن الزجاج الملون . فنظر إليها القاضى وقال :

— أنت متهمة بأنك وقفت أمام باب منزلك

فوضعت يدها فى خصرها وصاحت :

— هو يا روحى من وقف قدام باب بيته كفر ؟ !

— وقوفك فيه اغراء للجمهور

— حسرة وندامة علينا . وحياة دقن القاضى عمرنا ما وقعت عيننا على جمهور ، ولا مر من قدام منزلنا « ادلعدى » جمهور

— غرامة عشرين ... غيره

فصاح قزمان أفندى باسم المخالف التالى فظهر رجل كهل من الزارعين يبدو من زرقة « شال » عمامته « المزهرة » ومن جلبابه الكشمير وعباءته الجوخ الأمبريال وحذائه « اللستيك » الفاقع فى صفرته ، أنه على جانب من اليسار واستواء الحال . فما ان مثل حتى ابتدره القاضى :

— انت يا شيخ ، أنت متهم بأنك لم تسجل كلبك فى الميعاد القانونى

فتنحنح الرجل وهز رأسه وتمتم كأنه يستغفر ويسترجع :

— عشنا وشفنا الكلاب تتسجل « زى الأطيان » وتبقى لها حيثية !

— غرامة عشرين ... غيره

ومضت الأحكام فى جميع المخالفات على هذا النحو ولم أر واحداً من المخالفين قد بدا عليه أن يؤمن بحقيقة ما ارتكب . إنما هو غرم وقع عليهم من السماء كما تقع المصائب ، وأتاوة يؤدونها ، لأن القانون يقول إنهم يجب عليهم أن يؤدوها ؛ ولطالما سألت نفسى عن معنى هذه المحاكمة ، أنستطيع أن نسمى هذا القضاء رادعاً والمذنب لا يدرك مطلقاً أنه مذنب ؟ وفرغنا من المخالفات وصاح المحضر : « قضايا الجنح » ونظر فى ورقة « الرول » ونادى « أم السعد بنت ابراهيم الجرف . فظهرت فلاحة عجوز تدب فى القاعة حتى بلغت المنصة ووقفت بين يدى قزمان أفندى المحضر . فوجهها الى القاضى فوقفت تنظر اليه ببصر ضعيف ثم لم تلبث أن تحولت عنه وعادت الى الوقوف بين يدى المحضر المحترم . وسألها القاضى ووجهه فى الورق :

— اسمك ؟

— محسوبتك أم السعد

قالتها وكأنها توجه الخطاب الى المحضر فغمزها قزمان أفندى ووجهها الى المنصة مرة أخرى وسألها القاضى :

— صنعتك ؟

— صنعتى حرمة

— انت متهمة انك عضضت أصبع الشيخ حسن عمارة

فتركت المنصة ووجهت الكلام الى المحضر

— وحياة هيبتك وشيبتك إنى ماعبت أبداً . أنا حالفت ووقع منى يمين أن البنية ما يقل مهرها عن العشرين بنتو ...

فرفع القاضى رأسه وثبت منظاره ونظر اليها صائحاً :

— تعالى كلمينى هنا ، أنا القاضى ، العضة حصلت منك ؟ قولى نعم أو لا ، كلمة واحدة

— عضة ؟ حد الله ! أنا صحيح قبيحة ، لكن كله إلا العض

فصاح القاضى فى المحضر : « هات الشاهد » فحضر الجنى عليه وقد لف بنصره فى رباط صحى ، فسأله القاضى عن اسمه وصناعته وحلفه اليمين أن لا يقول غير الحق واستوضحه الأمر . فقال الرجل :

— أنا يا حضرة القاضى لا لى فى الطور ولا فى الطحين . والقصة ومافيها إنى كنت واسطة خير وسكت . كأنه قد أبان وأفصح عن سر القضية . فحملق فيه القاضى وهو يكظم غيظه ، ثم انتهره وأمره أن يقص ما حدث بالتفصيل ؛ فبسط الرجل الأمر قائلاً : إن لهذه المتهمة ابنة تدعى « ست أبوها » خطبها فلاح يدعى « السيد حريشة » وعرض مهراً قدره خمسة عشر بنتو فلم تقبل أمها بغير العشرين ، ووقف الأمر عند هذا الحد الى أن جاء ذات يوم شقيق الخاطب وهو صبى صغير يطلق عليه اسم « الزنجر » فذهب من تلقاء نفسه الى أهل العروس وأبلغهم كذبا أن الخاطب قد قبل الشرط ؛ ثم رجع الى أخيه وأخبره أن أهل البنت قد رضوا النزول بالمهر كما عرض ، وكان من أثر عبث هذا الصبى ومكره بالطرفين أن حدد يوم لقراءة الفاتحة فى بيت العروس ، وانتدب الخاطب الشيخ عمارة هذا والشيخ فرج ليكونا شاهديه . وتقابل الجميع وذبح والد البنت أوزة ، وما كاد

الطعام يهيأ ويقدم الى الضيوف حتى ذكر المهر . وظهرت الأكذوبة وإذا الموقف لم يتغير ؛ واحتدم الجدال بين الطرفين . وصاحت أم البنت تولول فى صحن الدار : يا مصيبتنا الكبيرة ، يا شماتة الأعادى ! والنبى ما أسلم بنتى بأقل من عشرين . وخرجت المرأة فى وسط الرجال كالمجنونة تدافع عن حق ابنتها وتخشى أن ينهى الرجال الأمر فيما بينهم بما لا ترضى ؛ وهزت الشيخ حسن الأريحية فلم يضع يده فى طعام وقام الى المرأة يداورها ويحاورها ويقنعها . بينما مد زميله الشيخ فرج يده الى الأوزة وجعل ينهش منها نهشا دون أن يدخل فى النزاع المحتدم . ويظهر أن التحمس من الجانبين قد جاوز حد الكلام وإذا الشيخ حسن يرى يده لا فى طبق الأوز ولكن فى فم العجوز ؛ فصرخ صرخة داوية . وانقلبت الدار شر منقلب ، واختلط الحابل بالنابل ، وجذب الشيخ حسن رفيقه ، فانتزعه من أمام الطعام انتزاعا وخرج به وهو يحرق الأرض : فهذا الرفيق لم يقل كلمة وحظى بالأكل ، وهو الذى تحمس قد خرج من الوليمة بجوعه ، وقد أكلت العجوز أصبعه ...

واسترسل المجنى عليه فى الكلام . وفجأة أخذت القاضى خلجة ، وتيقظ وسواسه فقاطع المتكلم وقال كالمخاطب لنفسه : « يا ترى أنا حلفت الشاهد اليمين ... » والتفت الىّ قائلا : « يا حضرة وكيل النيابة . أنا حلفت الشاهد اليمين ؟ ؟ » فجعلت أتذكر ... ولم يستطع القاضى طرد الشك فصاح : « احلف يا رجل : والله العظيم أقول الحق » فحلف الرجل ، فصاح به القاضى : « اذكر أقوالك من أولها »

فعلمت أننا لن ننتهى ، وبلغ الضيق أنى وتثاءبت وغرقت فى مقعدى وقد عبث النوم بأجفانى ، ومضى وقت لست أدرى مقداره ، وإذا صوت القاضى يصيح بى : « النيابة ! طلبات النيابة . » ففتحت عينين حمراوين لا يبدو فيهما غير طلب النوم ، فأخبرنى القاضى أنه اطلع الآن على تقرير الطبيب الشرعى فاذا الاصابة قد تخلف عنها عاهة مستديمة هى فقد « السلامية » الوسطى للبنصر ؛ فاعتدلت فى مقعدى وطلبت فى الحال الحكم بعدم الاختصاص . فالتفت القاضى الى العجوز قائلا :

— الواقعة أصبحت جناية من اختصاص محكمة الجنايات

فلم يبد على المرأة أنها فهمت الفارق ؛ فالمضة فى نظرها هى ما زالت المضة ، فما الذى حولها من جنحة الى جناية ؟ آه من هذا القانون الذى لا يمكن أن يفهم كنهه هؤلاء المساكين

ونوديت القضية التالية فاذا هى شجار بالهراوات وقع بين والد « ست أبوها » وبين أهل الزوج (السيد حريشة) فلقد تم الزواج بين الطرفين آخر الأمر . وبعث الزوج بعض أهله ومعهم جمل لاستلام العروس من بيت أبيها . فقابلهم الأب محتداً صارخاً فى وجوههم : « جمل » ؟ بقى تخرج بنتى على جمل ! أبداً . لابد من « الكوميل »

وتجادل الطرفان فيمن يدفع ثمن هذه البدعة التى رماها بهم تطور العصر . وأدى الجدال الى رفع العصى وإسالة بعض قطرات من الدماء لامناص منها فى مثل هذه الظروف . وانتهى الأمر بأن أخرج أحد الساعين فى الخير ريالاً من جيبه واستأجر سيارة من تلك السيارات التى تمر بالطرق الزراعية . وحكم القاضى فى هذه القضية ثم صاح :

— « انتهينا من الفرح » و « الدخلة »

على خير ! ... غيره !

فنادى المحضر بصوته الممتلىء « قضايا المحابيس » وذكر اسماً من الأسماء ، فدوت صلصلة السلاسل ونهض من بين لابسى الخيش رجل فك الحارس قيده . ونهض من بين المحامين أفندى ذو بطن كأنها القربة المملوءة وقال : « حاضر مع المتهم » « فقلت فى نفسى » تلك قضية لها محام لن يتركنا قبل أن يفرغ فى رؤوسنا ماشاء بحجة حرية الدفاع . فلأغمض عينى منذ الآن فرأسى أحوج ما يكون الى الراحة بعد سهر الليل . وسمعت القاضى يقول للمحبوس :

— أنت متهم بأنك سرقت «وابور غاز» ...

— أنا صحيح لقيت الوابور قدام باب الدكان . لكن لا سرقت ولا نهبت ...

فالتفت القاضى الى المحضر قائلا : « هات الشاهد » فحضر رجل على رأسه لبدة بيضاء وعلى منكبيه « دفيّة » ، فحلف اليمين وقال انه أشعل «وابور الغاز» ليهيىء الشاى لبعض «الزبائن» الجالسين داخل الحانوت . فهو بدال ربى صغير يبيع السكر واللبن والشاى والتبغ ويجتمع لديه أحيانا بعض الناس كأنهم فى شبه مقهى ولقد وضع الوابور مشتعلا عند عتبة الباب فى الطريق ودخل يحضر الابريق وما إن عاد حتى رأى المتهم قد حمل الوابور بناره وجرى به . وجعل الشاهد يسهب ويستشهد بمن حضر ومن جرى معه خلف السارق ، والقاضى مطرق وقد علمت من هيئته أنه يفكر فى شىء آخر . وفجأة نظر الىّ وقال كالمخاطب لنفسه : « أنا حلفت الشاهد اليمين ؟ » فما تمالكت أن صحت فى ضيق : « سبحان الله ! ! أنا سمعت الشاهد حلف » فقال لى القاضى : « أنت متأكد ؟ » فشعرت أن روحى تفارقنى فهمست : « تحب أنى أحلف لك أنه حلف ؟ » فاطمأن القاضى بعض الاطمئنان وأصغى الى بقية الشهود فى صمت وانتباه . ولم يطق المتهم صبراً فنهض بغتة كالمستغيث :

— يا حضرة القاضى ! فى الدنيا « حرامى » يسرق « وابور جاز » بناره ؟ !

فأسكته القاضى بأشارة من يده قائلا :

— تسألنى أنا ؟ ! أنا عمرى ما اشتغلت «حرامى!» . ونظر الى منصة الدفاع ، فقام المحامى عن المتهم بصيح قائلا : « يا حضرة الرئيس ! نحن لم نصادف وابور ، ولا رأينا وابور ، ولا مررنا فى طريق به وابور .. والقضية ملفقة من ألفها الى يائها ... » وأراد المحامى ان ينطلق فى هذا الكلام وأن يصول ويجول . ولكن القاضى قاطعه :

— حلك يا استاذ . المتهم نفسه معترف بأنه صحيح لقى الوابور قدام باب الدكان ! فضرب الأستاذ وجه المنصة بقبضته وقال :

— هذا سوء دفاع من موكلى

فأجاب القاضى فى هدوء :

— غرض حضرتك أنى أصدق حسن دفاعك وأكذب الحقيقة التى نطق بها موكلك أمامنا جميعاً !

فاحتج المحامى ورفع عقيرته وقد بدا لى أن كل همه أن يجلجل صوته فى الجلسة ، وأن يتصبب عرقه فيمسحه بمنديله وينظر إلى « زبونه » كأنما يريه الجهد الذى يتكبده من أجله والعناية التى يبذلها فى سبيله . وكان التعب والضيق والحبس بلا حراك أمام منصتى قد صيرنى شخصاً لا بى ولا يفهم ما يدور حوله فأخفيت وجهى فى ملف من ملفات القضايا واستسلمت للنعاس

(يتبع) توفيق الحكيم